الجذور التاريخية لعلم الاستغراب في التراث الإسلامي

محمد عبد الحليم بيشي

أستاذ مشارك في العقيدة والأديان

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية -جامعة قطر - قطر

تاريخ استلام البحث: ١١/ ١٠/ ٢٠١٨ **تاريخ قبوله للنشر:** ٤/ ١١/ ٢٠١٩

ملخص البحث

أهداف البحث: يهدف البحث إلى الكشف عن جذور المعرفة العربية والإسلامية بالغرب، من أجل التأسيس لعلم الاستغراب الذي يتغيا موازاة الجهود العلمية للاستشراق الذي أسهم بكل أطواره في مساعدة السياسة الغربية على مزيد الإمساك بخناق الشرق الإسلامي.

منهج الدراسة: يقوم البحث على المنهجين الاستقرائي، والتاريخي الوصفي، وذلك بالبحث في التراث الجاهلي، ثم في القرآن الكريم والسنة النبوية العامرة بعديد من النصوص والأحاديث المرشدة إلى وجوب دعوة الآخر وبالتالي معرفته، وكذا الخبرة الإسلامية العريضة في معرفة الغرب والتي تناثرت في كتب الأدباء والموسوعيين والرحالة، والجغرافيين، والدبلوماسيين، والتجار، ورجال الاستخبارات، وعلماء مقارنة الأديان.

النتائج: خلص البحث إلى ضرورة استناد الاستغراب للتجارب السابقة المبثوثة في كتب التراث، والاهتمام بالمنجز الإسلامي في معرفة الآخر، والإفادة من مدونات النوازل الفقهية وكتب العلاقات الدولية الإسلامية في تقييم المعرفة الإسلامية بالآخر، وآثار تلك المعرفة في رسم المدونة القانونية الإسلامية.

أصالة البحث: تظهر أصالة البحث في كونه يكشف عن نظرة المسلمين للغرب الوسيط من خلال فحص أديانهم وثقافاتهم، ومواقفهم من الآخر، ومحاولة بناء جذر معرفي للاستغراب المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الاستغراب، الاستشراق، الغرب، الروم، أوروبا.

The Historical Roots of Occidentalism in Islamic Heritage

Mohammed Abdelhalim Bichi

Associate Professor of Creed and Religions

College of Sharia - Qatar University- Qatar

halimbichi@qu.edu.qa

Received: 11/10/2018 - Accepted: 04/11/2019

Abstract

Purpose: The study aims to uncover the roots of Arab and Islamic knowledge in the West. This is in order to pave the way for the science of Occidentalism which reflects the scientific efforts of Orientalism, which contributed in all its phases to help Western politics to further capture the stranglehold of the Islamic East.

Methodology: The study is based on the inductive and descriptive historical methodologies. It researches in the pre-Islamic Jahiliya heritage, then in the Holy Quran and the Prophet's Noble Sunnah which is rich with texts and hadiths guiding to the need for Muslims to invite others to Islam which necessitates first to be acquainted with them. The study also looks into the broad Islamic experience in the knowledge of the West, which is scattered in the books of writers, encyclopaedic researchers, travellers, geographers, diplomats, merchants, intelligence men, and scholars of comparative religion.

Findings: The study concludes that Occidentalism must rely on previous experiences in heritage books, give due attention to Islamic achievement in getting acquainted with the other, and the use of the codes of contemporary jurisprudence and books of Islamic international relations in the evaluation of Islamic acquaintance with the other. Special attention must also be paid to the impact of such acquaintance on shaping the Islamic legislative code.

Originality: the originality of the study is manifested in revealing the view of Muslims to the Middle Ages in the West by examining their religions and cultures, their attitudes towards the other, and trying to build a cognitive root for contemporary Occidentalism.

Keywords: Occidentalism, Orientalism, The West, Romans, Europe

Cite this article as: Mohammed Bichi, "The Historical Roots of Occidentalism in Islamic Heritage", *Journal of College of Sharia and Islamic Studies* 37, no.2, (2020).

https://doi.org/10.29117/jcsis.2020.0245

© 2020 Mohammed Bichi. Published in *Journal of College of Sharia and Islamic Studies*. Published by QU Press. This article is published under the Creative Commons Attribution (CC BY 4.0) licence. Anyone may reproduce, distribute, translate and create derivative works of this article (for both commercial and non-commercial purposes), subject to full attribution to the original publication and authors. The full terms of this licence may be seen at http://creativecommons.org/licences/by/4.0/legalcode

تمهيد

الشرق الغرب كلمتان خالدتان في الزمن باقيتان في الوجدان قائمتان في التصوّر قيام الشمس والجغرافيا، وهما المتقابلان الدائمان اللذان تتقلب بينهما الحضارة مدًّا وجزرًا، عطاءً وأخذًا، غلبة وتداولًا، وفاقًا أو صدامًا، فالحضارة شرقية أو غربية، وليست شمالية أو جنوبية، ومنذ القديم كانت الأقاليم الفاعلة في الأرض هي الأقاليم الشمالية.

هل الكلمتان صناعة الإنسان البدائي، كلاّ بل هما صناعة الإنسان الواعي بالتميّز، وكذا بالهوية التي صقلتها تجارب التاريخ، فالكلمتان تشيران إلى مفهوم العلم والحساب المرتبط بالزمن المرتبط بحركات النجوم والشمس، وهو الذي ولّد الكتابة التي ولّدت التاريخ، فما قبل الكتابة هو ما قبل التاريخ، وما بعدها هو التاريخ، إنه القلم والعلم الذي تمت به كرامة الإنسان كما قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق،٣-٤].

فالحضارة المصرية اعتبرت مصر مركز الأرض، فشرقها شرق وغربها غرب، ثم جاء اليونان فوضعوا النظريات الأولى في الأقاليم السبعة ونظرية الكيوف الطبيعية وتأثير المناخ والنجوم، وتفاوت الأجناس والأعراق، فهم البشر وغيرهم البربر، ثم جاءت روما التي اعتبرت نفسها مركز الأرض وسُرتها، وكانت تعتبر ما قبلها من جهة مشرق الشمس شرقًا، وما بعدها هي غربًا، وسار المثل: كل الطرق تؤدي إلى روما.

* **إشكالية البحث:** تدور الإشكالية في البحث والحفر عن جذور علم الاستغراب قديماً ووسيطًا، وهل كان الحوض السامي العربي قد افتتح فعلاً هذا العلم من قبل؟ أم أن الأمر جديد مع تحدي الاستشراق الذي انكبّ بالدراسة الجادة على هذا الحوض الذي كان فاعلاً في الحضارة آمادًا طويلة، ثم صار مفعولًا ومنفعلاً بغيره؟

الفرضية الأولى تقول بأن البدايات موجودة في التصورات الجاهلية، ثم في المعرفة الإسلامية بالغرب الأول، وذلك في ترجمتها للمعارف الإنسانية وفي إنشائها لجسور انتقال الثقافة اليونانية، وكذا في الجدل الإسلامي المسيحي العريض، كما أننا لن نعدم إجابات وافية أو قاصرة في كتب الجغرافيا والرحلات التي لم تستنكف عن إمدادنا بوصف دقيق ومقارب أحيانًا لغرب العصور الوسطى، ثم كان الاكتشاف مع اصطلام الحروب الصليبية، ومع الحروب الاستعمارية الحديثة.

* **أهداف البحث:**

(أ) الكشف عن التصورات الإسلامية الأولى للغرب ومذاهبه وتياراته، قبل الولوج للكشف عن الغرب المعاصر؛ إذ إن الأفكار تتناسل من رحم واحدة، والقول بالقطيعة الفكرية خرص بغير يقين.

(ب) التأكيد على الريادة الإسلامية في التلاقح والتلاقي مع الآخر عن طريق فهم حضاراته وثقافاته، وإحياء منصّات التواصل والتجسير بين الأمم والثقافات.

(جـ) الإسهام في دفع عجلة الحوار الحضاري المعاصر لبناء أنموذج إنساني متراحم.

(د) الكشف عن الجهود الإسلامية في العدل الثقافي بمعرفة القراءات البصيرة بالآخر مهما كان دينه.

(هـ) إسعاف الباحثين في مقارنة الأديان بمادة علمية تبعية موازية لمصادرهم الأصلية.

(و) إمداد المشتغلين بالاستغراب بمواد معرفية تاريخية عن التصورات الإسلامية الأولى للغرب القديم، لتكون هذه المعارف منطلقًا لتأسيس خلفية معرفية ناظمة لتطوير هذا العلم.

* **منهج البحث ومساحته المكانية والزمانية:** البحث المقدم يحاول وضع خلفية تاريخية للاستغراب في التراث الإسلامي معتمدًا المنهج الاستقرائي للنصوص المتعلقة بالغرب (أوروبا القديمة)، باستثمار موارده المعرفية في كتب الرحلات والأدب والأديان، وكذا التاريخي الوصفي والمتداخل مع الجغرافيا؛ إذ لم تكن هذه العلوم منفصلة، وستكون مساحته المكانية ما يعرف الآن بأوروبا، وأما الفترة الزمانية فهي واسعة تشمل القرون العشرة الأولى من التاريخ الهجري.

* **الدراسات السابقة:** الدراسات السابقة قليلة ومتناثرة في ثنايا المراجع، أما البحوث الأكاديمية في هذا السياق فهي شحيحة، وما تناوله رواد الاستغراب- إذا صحَّ التوافق على المصطلح- أمثال راجي الفاروقي، ومالك بن نبي، وعلي عزت بيغوفيتش، وحسن حنفي، وإدوارد سعيد وغيرهم إنما انصبَّ على الحاضر، والبحث يرمي إلى إيجاد قاعدة معرفية ينطلق منها الاهتمام بالغرب الحديث والمعاصر.

ومن أهم الدراسات المصاحبة للبحث، والتي يمكن أن تشكل مرافقًا ما يأتي:

(أ) عبد الله إبراهيم: المركزية الإسلامية صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى.
وقد تتبّع فيه الباحث رؤية المسلمين للشعوب الأخرى في القرون الوسطى من ترك وفرس وروم وأحباش، وقدم بعض الأدبيات الإسلامية التي قال إنها قرأت الآخر قراءة تبخيسية تبعًا للادعاء بالنقاء الكامل، مما شكل في نظره مركزية إسلامية متمحورة حول ذاتها.

(ب) السلامي شافية حداد: نظرة العرب إلى الشعوب المغلوبة من الفتح إلى القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، وقد درست الرؤية التاريخية لشعوب البلدان المفتوحة انطلاقًا من كتب التاريخ وفتوح البلدان مع إيراد بعض النصوص المضادة من الآخر، وفي الجملة فالدراسة فيها مقاربة للتصورات الأولية عن الآخرين، وأكثرها عن الفرس، وأقلها عن أوروبا المجهولة آنذاك للمسلمين.

وقد رسمت خطة لهذا البحث كالآتي:

المبحث الأول: الغرب في المعجم العربي والاستعمال القرآني والنبوي.

المبحث الثاني: الغرب في كتابات الجغرافيين المسلمين.

المبحث الثالث: الغرب في كتابات الرحالة المسلمين.

المبحث الرابع: الغرب في كتابات المتكلمين والموسوعيين.

المبحث الأول: الغرب في المعجم العربي والاستعمال القرآني والنبوي

في البحث عن التطور الدلالي لمفهوم الغرب في الفكر الإسلامي الحديث يحسن بنا أن نعود للحفر في المعجم العربي للكلمة في المعاجم والقواميس المتداولة في حينها وبعد زمنها.

١ـ الغرب في المعجمية العربية: جاء في لسان العرب: في مادة "غرب" ما يفيد المفاهيم والمصاديق الآتية:

(أ) المفهوم الجغرافي: قال: الغرب والمغرب: بمعنى واحد[١]، والغروب جهة الشمس، والبلاد الواقعة فيه هي ما يقابل جهة المشرق. قال في التهذيب: للشمس مشرقان ومغربان، فأحد مشرقيها أقصى المطالع في الشتاء: والآخر أقصى مطالعها في القيظ، وكذلك أحد مغربيها أقصى المغارب في الشتاء وكذلك في الجانب الآخر. وقوله جلّ ثناؤه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج، ٤٠] جمع لأنه أريد أنها تشرق كل يوم من موضع، وتغرب في موضع إلى انتهاء السنة[٢].

والمُغرب: الذي يأخذ ناحية المغرب. وغرّب القوم: ذهبوا في المغرب، وأغربوا: أتوا الغرب؛ وتغرّب: أتى من قبل الغرب، والغربيّ من الشجر: ما أصابته الشمس بحرّها عند أفولها[٣].

(ب) ما يفيد النأي والبعد والتنحي عن الناس، قال: الغرب الذهاب والتنحي عن الناس، وأغربه: نحاه، وفي حديث النبي: أنه أمر بتغريب الزاني سنّة إذا لم يُحصن[٤]؛ وهو نفيه عن بلده، واغترب الرجل: نكح في الغرائب وتزوج إلى غير أقاربه، والغربة والغرَب: النوى والبعد[٥].

(جـ) ما يفيد الغموض وعدم الألفة: الغرب: الغامض من الكلام، ومنه أغرب في الكلام.

وقال ثعلب: ما عنده من مغربة خبر ؟ تستفهمه أو تنفي ذلك عنه؛ أي: طريفة. وفي حديث عمر ﷺ أنه قال لرجل قدم عليه من بعض الأطراف: هل من مغربة خبر؟ والخبر المُغرب: الذي جاء غريبا حادثا طريفا. وأغرب الرجل: جاء بشيء غريب. وأغرب عليه، وأغرب به: صنع به صنعا قبيحا[٦]. والمُغرب: المبعد في البلاد. وأصابه سهم غرب إذا كان لا يُدرى من رماه[٧].

(د) ما يفيد الحدّة والنشاط والمبالغة: الغَرْب: الحِدَّة، ومنه غرب السيف، أي كانت تُدارى حدته وتُتقى، وفي لسانه غَرْب أي حدة. وفي حديث عائشة عن زينب: "كل خِلالها محمود، ما خلا سَوْرة من غَرْب، كانت فيها"[٨].

والغرب: النشاط والتمادي، واستغرب في الضحك أكثر منه. وأغرب: اشتد ضحكه ولجّ فيه،

(١) محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، (بيروت، دار صادر، ٢٠٠٨)، ط٦، ج: ١١، ص: ٢٤.
(٢) محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١) ط١، ج: ٥، ص: ٧٣.
(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج: ١١، ص: ٢٤.
(٤) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، ج: ٣، ص: ١٣٢٤، رقم ١٦٩٧.
(٥) محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، (بيروت، دار الفكر، ١٩٧٨)، ص: ٣٢٢.
(٦) ابن منظور، لسان العرب، ج: ١١، ص: ٢٥/ الزمخشري، أساس البلاغة، ص: ٣٢٢.
(٧) ابن منظور، لسان العرب، ج: ١١، ص: ٢٥/ الزمخشري، أساس البلاغة، ص: ٣٢٢.
(٨) مجد الدين بن محمد ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٩)، ط١، ج: ٣، ص: ٣٥٠.

وفي دعاء ابن هبيرة: "أعوذ بك من كل شيطان مستغرب، وكل نبطي مستعرب". والغرب: الدلو العظيمة التي تتخذ من جلد ثور، والإغراب كثرة المال، والغرب: الشجرة العظيمة [١].

فمعاني الغرب في المعجم العربي تدور في أصلها على المدلول الجغرافي المرتبط بحركة الشمس، وعلى معانٍ فرعية مختلفة بين الإبعاد والنأي والتنحي والغموض والإغراب، والحدَّة، والشيء العظيم، ولكن الاستعمال الأصلي هو الذي غلب على الاستعمال العربي.

٢ـ الغرب والروم في الشعر الجاهلي:

عرف العرب اليونان وفتوحاتهم وصراعهم مع الإمبراطورية الفارسية؛ إذ أسقطوا أهم قلاع حضارة العالم القديم بابل عاصمة الكلدانيين والبابليين الذين ينتمون للحوض السامي العربي، ففي بابل قُبر الإسكندر المقدوني سنة (٣٢٣ق م) [٢].

كما عرف العرب في دولهم المختلفة وإماراتهم المتعددة (تدمر، والحضر، ونصيبين، والخابور، والرستن، وتدمر، وحوران، وبصرى) [٣] الرومان الغربيين، وعرفوا ورثتهم الروم الشرقيين إبان غلبتهم وظهور إمبراطوريتهم وتطويعهم لبلاد الشام العربية، فدان بعضهم بمذاهبهم الدينية النسطورية والأريوسية واليعقوبية والملكانية، وهناك مأثور شعري كثير في الدواوين الشعرية المؤرخة لهذا التثاقف الديني.

وكانت ديار بكر وربيعة وتغلب وإياد مَعبَرَاً مهماً للتلاقي مع الروم الوافدين، ودخل هؤلاء في التحالفات والاشتباكات بين الفرس والرومان. والشعر الجاهلي مليء بأخبار هذه الحروب.

ومن المأثور في هذه المعرفة والتواصل قصة الملك الضلِّيل امرئ القيس بن حجر الكندي الذي رام استعادة ملك آبائه بالقوة الرومية، وخلَّد ذلك في قصيدته التي يقول فيها:

وَلوْ شاءَ كانَ الغزْوُ من أرض حِمْيَرٍ *** ولكنه عمداً إلى الروم أنفرا

بَكى صَاحِبي لّما رأى الدَّرْبَ دُونه *** وأيقنَ أنا لاحقانِ بقيصرا

فَقُلتُ لَهُ لا تَبْكِ عَيْنُكَ إنّمَا *** نحاوِلُ مُلْكاً أوْ نُموتَ فَنُعْذَرَا

كما أبهر الروم غيرهم بتنظيماتهم الإدارية والعسكرية لأنهم ورثوا الحضارات الشرقية (البابلية والمصرية)[٤]، ولذلك كان الغالب على الشعر الجاهلي والمأثور العربي الإشادة بالتجربة الرومية، وقد وجدنا نصوصًا شعرية في هذا المضمار كقول طرفة بن العبد مشيدًا بالبناء الرومي في معلقته [٥]:

كقنطرة الرومي أقسم ربها *** لتُكتنفن حتى تشاد بقرمد

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج: ١١، ص: ٢٥.
(٢) انظر ول ديورانت، قصة الحضارة، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، (بيروت، دار الجيل، ١٩٩٨)، ط١، ج: ٧، ص: ٥٢٣.
(٣) انظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (العراق، جامعة بغداد، ١٩٩٣)، ط٢، ج:٢، ص: ٦٠٥.
(٤) مارتن برنال: أثينا السوداء الجذور الأفروآسوية للحضارة الكلاسيكية، (مصر، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧)، ط١، ج: ١، ص: ١٢.
(٥) أحمد الهاشمي، جواهر الأدب، (بيروت، دار المعارف، د-ت)، ج: ٢، ص: ٧١.

وفي قصة بناء الكعبة قبل البعثة استعانت قريش ببنّاء رومي كما هي القصة الواردة في تجديد بنائها، وتدخل النبي عليه الصلاة والسلام في حلّ الخلاف حول الحجر الأسود[١].

كما عرف العرب الحياة الاجتماعية للروم، ونشأ أدب جاهلي حول الديارات[٢] وطقوس الخمر واللهو وأخذ لين الطعام في الهلال الخصيب وحواضر الشام. ونقرأ في معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي[٣]:

وكأسٍ قد شربتُ ببعلبكٍ *** وأخرى في دمشقَ وقاصرينا

وكانت بلاد الروم مرتعًا للاهيين والمنفيين والمتمردين على الأعراف العربية والإسلامية من بعد، كما قال ربيعة بن أمية بن خلف الذي ارتد عن الإسلام ولحق ببيزنطة لعشقه الخمر[٤]:

لحقتُ بأرض الروم غير مفكر *** بترك صلاة من عشاء ولا ظهر

فلا تتركوني من صبوح مدامة *** فما حرم الله السلاف من الخمر

فإن يكُ إسلامي هو الحق والهدى *** فإني قد خليته لأبي بكر

وأما المأثور العربي بمعرفة الروم فهو كثير جدًّا استوفاه الجاحظ وغيره في مؤلَّفاتهم الأدبية[٥]. ومما أُثر أن الحجاج بن يوسف سأل أحدهم عن تصنيف البلدان، فقال عن أهل الشام: نزلوا بحضرة الروم فأخذوا من ترفهم وصناعتهم وشجاعتهم"[٦]. والمدونة الأدبية والشعرية طافحة بهذا التواصل العربي الرومي.

٣ـ في القرآن الكريم:

وردت مادة الغرب والغروب والمغارب. في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ [الكهف، ٨٦]

وذكر المفسرون أقوالًا عديدة في تعيين المكان، لكن الاتفاق وارد في أن ذا القرنين قصد جهتين متقابلتين هما المشرق والمغرب[٧]. ومن الآيات ذات المعنى الجغرافي قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج، ٤٠]، ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾[الرحمن، ١٧]

(١) عبد الرحمان السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق عمر عبد السلام السلاوي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠)، ط١، ج: ١، ص: ١٦٩.

(٢) انظر علي بن محمد أبو الحسن الشابشتي، كتاب الديارات، تحقيق عواد كوركيس، (بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨٦)، ط٢، ص: ١٢.

(٣) الهاشمي: جواهر الأدب، (معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي)، ج: ٢، ص: ٦١.

(٤) انظر علي بن محمد بن الأثير، الكامل في التاريخ، (بيروت، دار الكتاب العربي، د-ت)، ط٦، ج: ٢، ص: ٢٠٦.

(٥) انظر عمرو بن بحر الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق علي أبو ملحم، (بيروت، مكتبة الهلال، ١٩٩٣)، ط٣، ج: ٣، ص: ٤٠٨.

(٦) ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، (بيروت، دار صادر، ٢٠١٠)، ط٨، ص :٤٧.

(٧) انظر محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠)، ط١، ج: ١١، ص: ٣١.

أما أهم آية في التأسيس لشرعية علم الاستغراب فهي آية الروم، وهم الجنس الوحيد الذين سميت باسمهم سورة كاملة، والتي أرخت لحدث مهم في العالم القديم وهو انتصار الإمبراطورية الساسانية على البيزنطية في واقعة الأغوار في الأردن، وأخذها بلادَ الشام وبيت المقدس سنة (٦١٤م)، مما أحدث رجّة في الأوساط الدينية النصرانية، وفرحت قريش بهذا الانتصار، وشمتت بالمسلمين بحكم قرب الوثنية من المجوسية، وقرب الإسلام من الكتابية، والآية هي: ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[الروم، ١-٣]، وبالفعل استرجع البيزنطيون أراضيهم أيام هرقل سنة (٦٢٧م)[(١)].

اهتم القرآن الكريم بالمذاهب الدينية النصرانية المتصارعة حول طبيعة المسيح، والتي زادها سوءًا تبني الدولة البيزنطية للمذهب الملكاني، ومحاربة المذاهب الأخرى كما حصل ليعاقبة مصر المتمردين على قرارات مجمع خلقدونية[(٢)]. إضافة إلى النساطرة الذين وجدوا في الدولة الفارسية ملجأً يقيهم كيد الملكانيين، أما الأريوسيون الموحدون فقد كانت مصائرهم مظلمة توزعت بين القتل والسجن والنفي منذ رفضوا مقررات مؤتمر نيقية (٣٢٥م) المنادية بألوهية المسيح والثالوث[(٣)].

عرض القرآن الكريم بالإجمال للمذاهب النصرانية المختلفة المتناحرة:

- ففي المذهب الملكاني القائل بالطبيعتين، نقرأ قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ﴾ [المائدة، ٧٣].

- وفي المذهب اليعقوبي الأرثدوكسي القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح نقرأ قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ [المائدة، ٧٢].

- وفي إشارة للمذهب النسطوري القائل بأن مريم ولدت الناسوت ثم تلبّس به اللاهوت: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾[المائدة، ٧٥].

ولأجل هذا الاهتمام القرآني كانت المعرفة النبوية بالمذاهب المسيحية أصيلة وواسعة، فمن شواهد ذلك إرسال الصحابة المضطهدين إلى الحبشة التي كان ملكها قريبًا من المذهب التوحيدي في النصرانية، وقد انتهى هذا النجاشي إلى الإسلام، فأسلم خُفية، وصلى عليه النبي عليه الصلاة والسلام صلاة الغائب لما توفي[(٤)].

(١) انظر العريني الباز، تاريخ الدولة البيزنطية، (بيروت، دار النهضة العربية، د.ت)، ط١، ص: ١١٥.
(٢) محمد الغزالي، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، (القاهرة، دار نهضة مصر، ٢٠٠٣)، ط٣، ص: ٩٧.
(٣) انظر محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، (الجزائر، مكتبة الشهاب، ١٩٨٩)، ص: ١٩٦.
(٤) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الصفوف على الجنازة، ج: ٢، ص: ٨٦، رقم ١٣١٧.

وأرسل النبي ﷺ إلى هرقل كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام وجاء فيه: "إني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتيك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين."[1]

اختلف الشراح في تفسير كلمة الأريسيين في أنهم الفلاحون، أو أنهم العشَّارون[2]، ولكن يظهر أنهم أتباع "أريوس" الذي نادى بإنسانية متميزة للمسيح ليس فيها خصائص ألوهية الأب، فتمّ طرده من مجمع نيقية، وحُورب أصحابه، وكان النبي ﷺ على علم بهذا، وهو ما يدل على سعة الأفق النبوي في معرفة الاختلافات الدينية.

ولما ورد عدي بن حاتم إلى النبي ﷺ قال له: ألم تكن ركوسيًا؟ قال: بلى[3]. وورد أنه مذهب بين المسيحية والصابئة، ولكنها ربما تدل على إحدى الطوائف المسيحية المندثرة.

وعندما ورد نصارى نجران على النبي ﷺ أنزلهم في مسجده، وبقي يناظرهم في حقيقة عيسى خمسة عشر يومًا حتى كان يراوح بين قدميه. ولما يئس من إجابتهم دعاهم إلى المباهلة فامتنعوا، وقد أخرج الشيخان: "أن العاقب والسيد أتيا رسول الله فأراد رسول الله أن يباهلهما. فقال أحدهما لصاحبه: لا تلاعنه فو الله لئن كان نبيا فلاعننا لا نفلح أبدًا ولا عقبنا مَن بعدنا"[4]

٤ـ السنة النبوية:

ورد لفظ الغرب في حديث: "لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة"[5]، وفي رواية:"لا يزال أهل المغرب" كما في رواية الحميدي وغيره[6]، واختلف الشراح في المراد بالغرب في أنهم العرب لأنهم أهل الدلو، أو أنهم أهل الشام لأنهم غرب الحجاز[7]، أو أنهم أهل إفريقية كما انتصر لذلك بعض المغاربة.

أما لفظ الغرب بالمعنى الجغرافي فلم يرد بذاته، وإنما على مدن فيه كالقسطنطينية ورومية. ومن ذلك " لتُفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش جيشها"[8]. وقام العديد بمحاولات الفتح كمعاوية ومسلمة بن عبد الملك، وحاول خلفاء بني العباس كالرشيد والمعتصم تحقيق البشارة في حملات الصوائف التي جردوها ضدّ الإمبراطورية البيزنطية، إلى أن كان الفتح على يد محمد الفاتح (١٤٥٣م).[9]

(١) صحيح البخاري، كتاب بدأ الوحي، باب كيف كان بدأ الوحي، ج: ١، ص: ٨، رقم ٧.
(٢) أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (الرياض، مكتبة دار السلام، ٢٠٠٠)، ط٣، ج: ١، ص:٥٤.
(٣) السهيلي: الروض الأنف، ج٧ ص: ٤٧٨/ ابن الأثير: أسد الغابة، ج: ٣، ص: ٣٣٥.
(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قصة نجران، ج: ٥، ص: ١٧١، رقم ٤٣٨٠.
(٥) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله: "لا تزال طائفة من أهل الغرب"، ج:٣، ص:١٥٢٥، رقم ١٩٢٥.
(٦) محمد بن فتوح الحميدي الأندلسي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨)، ص ٦/ محمد بن أحمد أبو العرب القيرواني: طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي، (تونس، الدار التونسية، ١٩٨٥)،ص: ٦١.
(٧) يحيى بن شرف النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (بيروت، دار ابن حزم، ٢٠٠٢)، ط١، ص: ١٤٧٠.
(٨) أبو عبد الله الحاكم: المستدرك على الصحيحين، كتاب الفتن والملاحم، ج: ٤، ص: ٤٦٨، رقم ٨٣٠٠.
(٩) انظر محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، (بيروت، دار النفائس، ١٩٩٨)، ط٨، ص: ١٦٠.

وأما رومية (عاصمة البابوية) فقد ورد عن عبد الله بن عمرو قال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سُئل رسول الله ﷺ أي المدينتين تفتح أولًا قسطنطينية أو رومية؟ فقال النبي ﷺ: لا، بل مدينة هرقل أولًا، يعني القسطنطينية"[١].

ونقرأ حديث المستورد القرشي: "تقوم الساعة والروم أكثر الناس"، فقال له عمرو بن العاص: أبصر ما تقول. فقال: أقول ما سمعت من رسول الله. قال له عمرو: لئن قلت ذلك، فإن فيهم لخصالًا أربعة: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: أمنعهم من ظلم الملوك"[٢]. فهذا التقييم السياسي والاجتماعي من ابن العاص لحالة الروم إنما هو عن خبرة عميقة بأحوالهم. لأنه كان تاجرًا رحالة جاب أقطار الشام ومصر والحبشة. والحديث مؤسس لشرعية علم الاستغراب والإفادة من الخبرات الإنسانية.

وفي الإفادة من التجربة الإدارية الرومية اتخذ النبي ﷺ الخاتم للمراسلات الدبلوماسية، ففي حديث أنس: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الروم. قيل له: إنهم لا يقرؤون إلا كتابًا مختومًا، فاتخذ خاتمًا من فضة، فكأني أنظر إلى بياضه في يده، ونقش فيه: محمد رسول الله."[٣].

وفي سبيل الإفادة من الخبرات الاجتماعية والاقتصادية للروم لم يمنع النبي ﷺ أصحابه من التجارة في بلاد الشام، ولبس النبي جبَّة رومية ضيقة الأكمام[٤]، وأكل من جبن الروم في غزوة تبوك[٥]. بل وذُكر أن اتخاذ المنبر لخطبة الجمعة كان بإشارة من تميم الداري، الذي قال: "ألا أتخذ لك منبرًا يا رسول الله يجمع أو يحمل عظامك؟ قال: بلى"[٦]، ويظهر أن هذه الإشارة أثرة لما شاهده من اتخاذه في كنائس الشام للتسميع. وأجاز النبي عليه الصلاة والسلام التعامل بالدنانير الرومية.

فكل هذه الدلائل تدل على عمق التواصل مع التجارب الإنسانية، وهي تصلح شاهدًا لدفع النبي ﷺ أصحابه إلى تعلُّم اللغات الأجنبية، ففي حديث زيد بن ثابت: أمرني رسول الله أن أتعلم له كلمات من كتاب يهود، وقال: إني لا آمن يهود على كتابي. قال: فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له. قال: فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبتُ إليهم. وإذا كتبوا إليه قرأتُ له كتابهم"[٧].

ويمكن الخلوص من هذه الشواهد المستقاة من القرآن والسنة إلى انفتاح العقل المسلم على التجارب الإنسانية والمعارف البشرية والأنظمة المعرفية في تبنيه الصالح منها، وهذه الشواهد ترشد العقل المسلم

(١) الحاكم: المستدرك على الصحيحين، كتاب الفتن والملاحم، ج: ٤، ص: ٤٦٨، رقم ٨٣٠١.
(٢) صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس، ج: ٤، ص: ٢٢٢، رقم ٢٨٩٨.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب الشهادة على الخط المختوم، ج: ٩، ص: ٦٧، رقم ٧١٦٢.
(٤) أحمد بن حنبل، المسند، حديث المغيرة بن شعبة، ج: ٣٠، ص: ١٤٧، رقم ١٨٢٣٩.
(٥)) عبد الحي الكتاني، التراتيب الإدارية، (بيروت، دار الكتاب العربي د.ت)، ج: ٢، ص: ١٦٢.
(٦) سنن أبي داوود: كتاب الصلاة، باب في اتخاذ المنبر، ج: ١، ص: ٢٨٤، رقم ١٠٨١/ ابن حجر، فتح الباري، ج: ٢، ص: ٥١٢.
(٧)) سنن أبي داوود، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، ج: ٣، ص: ٣٦٤، رقم ٣٦٤٥.

إلى وجوب الانفتاح على النافع من الخبرات البشرية دون التطويح بالأصول والمطلقات أو العود عليها بالنقص أو النقض أو التشويه، كما تفيد الوجوب في معرفة الغير في دينه وحضارته وثقافته، باعتبار الآخر من جملة أمة الدعوة، وهو ما يعطي لعلم الاستغراب شرعيته الكاملة، والتي تعتضد بالحاجات الضرورية من أمن وتبادل في عالم لا يُقبل فيه الغائبون.

المبحث الثاني: الغرب في كتابات الجغرافيين المسلمين.

إن الولوج لتأسيس قاعدة معرفية تاريخية لعلم الاستغراب لا بد أن ينطلق من المأثور التاريخي للمسلمين في معرفة الآخر، وتقييم تلك المعرفة، وآثار ذلك على المنظومة القانونية الإسلامية فيما فصّله الفقهاء في أحكام تقسيم العالم، وهل كانت تلك المعرفة منقوصة أم كاملة أم مقاربة؟ وهل قابلها الآخر الغربي باستشراق قديم؟ وهذا ما يقودنا للحفر في المدونات لنكتشف الفارق الحضاري بين العالمين، عالم المسلمين الرائد، والعالم الوسيط لأوروبا المظلم الغائب، ولنخلص إلى أن القوي هو من يعرف غيره، وأما المتخلِّف فهو من ينكفئ على ذاته، وبهذا الميزان نال المسلمون ريادة العالم سابقًا، وكان الأوروبيون في حكم التابع قبل أن تنقلب الأوضاع فيتقدم الأوروبيون ويتساوق تقدمهم بتأسيسهم لعلم الاستشراق والذي كان في أغلبه ظهيرًا للاستعمار الحديث.

وقع وصف المسلمين للغرب جغرافيًّا في الكلام عن الإقليمين الخامس والسادس من أقاليم المعمورة السبعة الواقعة شمال خط الاستواء تبعًا للتقسيم المجسطي اليوناني، والذي تابعهم عليه المسلمون بما أضافوه من خرائط وبيانات ومراحل وحسابات غفل عنها اليونان، وخاصة مع أول صورة كاملة وضعت للأرض، وهي الصورة المأمونية للخليفة المأمون العباسي.

تابع أغلب الجغرافيين المسلمين اليونانيين في نظرية الكيوف الطبيعية وتأثير المناخ والجغرافيا على العطاء الحضاري للأجناس[1]، وصادف ذلك هوى في عزِّ السيطرة الإسلامية التي ولدت منها بعض التصنيفات العنصرية[2] تبعا للقول بمركزية إسلامية في العصور الوسطى.

من المعلوم أن العطاء الجغرافي الإسلامي في تقسيم العالم كثير، وقد أفاد منه الفقهاء في تقسيماتهم للمعمورة بكونها دار إسلام أو حرب أو عهد[3]، وهذه التقسيمات اختلفت من عهد إلى عهد، ومن مذهب إلى مذهب على حسب التوازنات الدولية، ومن نماذج الجغرافيين الذين أمدونا بمعلومات صحيحة أو مبهمة عن الغرب:

(أ) **ابن خرداذبة أبو القاسم (٢٨٠هـ)**: الرحالة ورجل البريد في الدولة العباسية الذي أعطى بعض الوصف المنقول عن العالم الغربي: " وتُجاور الأندلس فرنجة (فرنسا) وما والاها من بلاد الشرك.. ومما يلي الشمال والروم، وفرنجة من جبال الأندلس تثلج في آخر ذلك الوجه"، وعلى

(١) إبراهيم عبد الله: المركزية الإسلامية صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، (المغرب، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠١)، ط١، ص: ٦٠.
(٢) شافية حداد السلامي، نظرة العرب إلى الشعوب المغلوبة للشعوب، (بيروت، دار الانتشار العربي، ٢٠٠٩)، ط١، ص: ٤٤٠.
(٣) انظر وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، (دمشق، دار الفكر، ١٩٩٢)، ط٤، ص: ١٧٦.

منوال التقسيم الجغرافي يقول: "والذي يجيء من البحر الغربي (المتوسط) الخدم الصقالبة والروم والإفرنجيون، واللمبرديون.. وورومية وبرجان وبلدان الصقالب والأبر شمالي الأندلس"[١].

ويعطينا ابن خرداذبة تصوّره لجغرافية أوروبا في قوله: "فأما سائر بلاد الروم فأولها من المغرب رومية وصقلية وهي في جزيرة، ورومية دار ملكهم... إلى القسطنطينية"[٢]، كما يفيدنا بوصف شامل لروما عاصمة البابوية، والملاحظ سكوته عن الأجزاء الشمالية لأوروبا بما يفيد أنها كانت خارج الحضارة، فهي مواطن الجرمان البرابرة الذين خربوا روما سنة (٤٧٦م).

(ب) **الإصطخري**: أبو إسحاق الكرخي (٣٤٦هـ): تعرض في كتابه لوصف دقيق للأقاليم الإسلامية والهندية والبحار، وأشار إلى التقابل الجغرافي والحضاري والديني أول مرة بلفظ الغرب؛ إذ قال: "فأما مملكة الإسلام فإن شرقيها أرض الهند وبحر فارس، وغربيها مملكة الروم وما يتصل بها من الأرمن واللان والران والسرير والخزر والروس وبلغار والصقالبة وطائفة من الترك"[٣].

فهذا النص يحيل إلى بدايات تكون الغرب بالمفهوم الحضاري المتجاوز للجغرافيا عندما ألحق شعوب آسيا الغربية (حوض قزوين، الخزر، وأرمنيا) للغرب، أي لأوروبا. وهي أول مقابلة حضارية بين الشرق والغرب نعثر عليها في كتب الجغرافيا التي ازدهرت في العصر الذهبي للمسلمين.

ويضيف الإصطخري التحديد الجغرافي للغرب المعاصر فيقول عن حدود أوروبا المعروفة والمسكونة:"وأرض الروم حدها من البحر المحيط (الأطلسي) على بلاد الجلالقة، وإفرنجة، ورومية، وأثيناس إلى القسطنطينية، ثم إلى أرض الصقالبة، يشبه أن يكون نحوًا من مائتين وسبعين مرحلة".

ثم يؤكد هذا التمايز الجغرافي والحضاري بقوله: "والروم المحض من حد رومية إلى حد الصقالبة...فأما ما ضممناه إلى بلاد الروم من الإفرنجة والجلالقة وغيرهم لسانهم مختلف، غير أن الدين والمملكة واحد، كما أن في مملكة الإسلام السنّة مختلفة والملك واحد"[٤]، وهي إشارات صريحة لبدايات مفهوم الغرب الحضاري المقابل للإسلام حضارة وأمة.

ويعرض الإصطخري لوصف بلاد الصقالبة والروس والبلغار ويتكلم عن وحدة دينهم في النصرانية، وعن تميزهم في العادات والسكن والملابس وعن انفرادهم وانغلاقهم: "ولا يذكر أن أحدًا وطئ أرضهم من الغرباء، وإنما ينحدرون في الماء يتَّجرون فلا يخبرون بشيء من أمورهم ومتاجرهم، ولا يتركون أحدًا يصحبهم ولا يدخل بلادهم.. والروس يحرقون أنفسهم إذا ماتوا، وبعضهم يحلق اللحى...وهؤلاء الروس يتجرون إلى الخرز ويتجرون إلى الروم وبلغار وهم متاخمون للروم في شماليِّها"[٥].

(١) أبو القاسم بن خرداذبة، المسالك والممالك، (بيروت، دار صادر، د-ت)، ط١، ص: ٩٠.
(٢) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص: ٩٤.
(٣) إبراهيم بن محمد الإصطخري، مسالك الممالك، (بيروت، دار صادر، د-ت)، ط١، ص: ٥.
(٤) الإصطخري، مسالك الممالك، ص: ٨-٩.
(٥) الإصطخري، مسالك الممالك، ص: ٣٣٥.

(جـ) المقدسي البشاري (٣٨٠هـ): تابع متقدميه من الجغرافيين في إمدادنا بمعلومات جغرافية وسكانية باهتة عن أوروبا، وجلّ المعارف المكتسبة كانت حول بيزنطة بحكم الصدام الحضاري معها في حدود الأناضول[١].

قال عن الجزائر البحرية: "وما كان من الجهة الأخرى يعني يسار البحار فنصارى، وفيه ثلاث جزائر عامرة آهلة، صقلية تقابل المغرب، وأقريطش (كريت) تقابل مصر، وقبرص تقابل الشام، وله خلجان معروفة وعلى حافته بلدان كثيرة وثغور جليلة ورباطات فاصلة، وجهة منه على تخوم الروم إلى حدود الأندلس، والغالب عليه الروم، وهم مخوف منهم جدًّا"[٢].

كما يورد معلومات عن التلاقح الحضاري بين الأندلس وأوروبا، وحتى عن القسطنطينية الذي ذكر بأن بها جالية من المسلمين لهم دار يجتمعون بها[٣]. ومعلوماته وافرة عن أوروبا الشرقية دون الغربية.

(د) ابن سعيد المغربي (٦٧٣هـ): يشير بصراحة إلى أوروبا ويسمي الأراضي الغربية أي فرنسا بالأراضي الكبيرة، حيث تكلم عن الإقليم السادس فقال: "أهله يشتد بياضهم حتى يسري ذلك في شعورهم، وتعمهم الزرقة والشقرة" [٤]. وقد قسمه إلى عشرة أجزاء، لأوروبا منها ثلاثة أجزاء وهي:

- الأول: الأندلس، والشمال الغربي الأيبري: ومدنها طليطلة، ومرافئ البحر المحيط، والبرتغال.

-الثاني: الشرق الأندلسي وجنوب فرنسا وإيطاليا: سرقسطة، وطرطوشة، وبرشلونة، وجبال البرانس التي تفصل بين الأندلس والأرض الكبيرة، وكستليون، وتلوز، ومرسيليا، وإيطاليا، وجنوة، والبندقية، وروما قاعدة البابا، وصقلية.

-الثالث: البلقان: خليج البنادق (البحر الأدرياتيكي)، وسبينقو، وشعب باشقر، وبلاد اليونان، وجزيرة أقريطش (كريت)، ومدينة أبزو، وقال: وهي للنصارى الذين لا يحلقون لحاهم، (وهو يريد بذلك الأرثوذوكس)، وأخيرًا القسطنطينية غرب آسيا الصغرى.[٥].

أما الإقليم السابع وهو ما يشمل اليوم أوروبا الوسطى والشمالية، فقال: إن عديد مدنه خامل الذكر، مما يدل على التردي الثقافي والتخلف الحضاري في أوروبا آنذاك، وقد قسّمه إلى الآتي:

-الأول: سواحل البحر المحيط، وجزيرة بريطانيا، وليون، وجليقة (شمال إسبانيا).

-الثاني: بلاد الفرنجة، وبريس قاعدة فرنسا، وأوروبا الوسطى، وبلاد نهر الدانوب، وبلاد ألمانيا.

- الثالث: المعمور في الإقليم السابع: "الجزء الأول من المعمور خلف الإقليم، وأول ما يلقاك منه في البحر المحيط بالمغرب جزيرة بريطانية... والجزء الثاني جزيرة بلله، وفي الشرق منها جزيرة

(١) اشتهرت حدود الأناضول بالصراع المستمر بين المسلمين والبيزنطيين، في العهد العباسي وفي الدولة الحمدانية، ونذكر قصيدة أبي تمام المخلدة لانتصار المعتصم العباسي على الروم في عمورية، انظر العريني: تاريخ الدولة البيزنطية، ص: ٤٧٢.

(٢) محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (ليدن، مطبعة بريل، ١٩٠٦)، ط٢، ص: ١٥.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: ١٢٧.

(٤) علي بن موسى بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، (الجزائر، المطبوعات الجامعية، ١٩٨٢)، ط٢، ص: ١٧٨.

(٥) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص: ١٨٣-١٨٩.

إنجلترة وقاعدتها مدينة لندرس (لندن)، وجزيرة إيرلندة، وهي مشهورة بكثرة الفتن وكان أهلها مجوسًا ثم تنصّروا تباعًا لجيرانهم، وفي الشمال منها جزيرة جرمونية، وجزيرة الصقلب الكبيرة، وفي الشمال في نهاية المعمور البروس (الألمان)، وهم أمة عاتية أجهل من الروس[١]. وهذه إشارات كافية للتفاوت بين العالمين.

المبحث الثالث: الغرب في تصورات الرحالة المسلمين.

عرض الرحالة المسلمون للغرب، وكتبوا عن حدوده وأجناسه وعاداته وديانته، وهناك خطان مشهوران في الرحلة والمعرفة بالغرب.

الأول الخط المشرقي: الذي انطلق منه الرحالة من الحواضر المشرقية للبلاد البيزنطية والبلغارية والروسية. ومن أشهر هؤلاء ابن فضلان.

الثاني: الخط المغربي: وقواعد الانطلاق فيه من الأندلس[٢] والمغرب وصقلية. ومن أشهر هؤلاء السفراء الأندلسيون، والمتكلمون والنظّار أمثال الإمام المازري الصقلي وعبد الحق الصقلي، والطرطوشي والإدريسي والبكري وغيرهم[٣].

وتفيدنا كتب النوازل الفقهية عن صور نمطية وحقيقية عن حياة الأوروبيين الوافدين للبلاد الإسلامية تجارًا أو سفراء أو أسرى، والنماذج كثيرة في هذه الكتب والمدونات المغاربية كالمعيار للونشريسي[٤].

(أ) **أحمد بن فضلان**: سفير الخليفة المقتدر العباسي الذي بلغ في رحلته حدود نهر الدانوب، وبلاد الفولغا، وذكر نماذج من حياتهم وعاداتهم التي تومئ إلى تخلُّف حضاري، فهي بلاد الظلام والضباب ومدنها خاملة الأسماء، وعاداتها غريبة من عري النساء وقلة الحياء وحرق الموتى عند الروس[٥]، والوثنية الطافحة في الشمال جعلت الرحالة يُخرج أوروبا الشمالية من مجال الإنسان المتحضر، مما أسهم في بناء مركزية عربية في القرون الأولى[٦].

من النصوص الفارقة في توصيف الحياة الأوروبية: "وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا يغسلون أيديهم من الطّعام، بل هم كالحمير الضّالة،...ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقلُّ والأكثر ولكلٍّ واحد سرير يجلس عليه، ومعهم الجواري الروقة للتّجار....، وربّما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحال بعضهم بحذاء بعض، ولابدَّ لهم في كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء، .."[٧].

(١) انظر ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص: ١٩١-٢٠٢.
(٢) انظر حسين مؤنس: فجر الأندلس، (جدة، الدار السعودية، ١٩٨٥)، ص: ٢٩٣.
(٣) انظر محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية الأندلس في عصر المرابطين، (الجزائر، دار القافلة، ٢٠١٤)، ط١، ج: ٢، ص: ٥٧٣.
(٤) انظر أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨١)، ط١، ج: ٢، ص: ٢٣٢-٢٥٢/ ج:١١، ص: ١٥٤/ ج: ١١، ص: ٩٦/ ج: ١١، ص: ١٥٠.
(٥) أحمد بن العباس بن فضلان، رحلة ابن فضلان، تحقيق حيدر غيبة، (بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ١٩٩٤)، ص: ٦٩.
(٦) انظر عبد الله إبراهيم، المركزية الإسلامية صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، ص: ١٢.
(٧) رحلة ابن فضلان، ص: ٧٣.

وينوء البحث بالكلام عن الصفات السلبية التي ذكرها ودبجها الرحالة عن حالة التخلف الحضاري والعوز القيمي الذي كانت عليه أوروبا الوسطى والشمالية، فليس هناك خلق حميد عدا الشجاعة التي أرجعها الرحالة للقوة البهيمية. وهنا ستبرز قيمة المسيحية كدين أو كخميرة أعادت بناء الإنسان الأوروبي كما يقول الفيلسوف مالك بن نبي[1].

(ب) **أسامة بن منقذ الشيزري: (ت٥٨٤هـ):** من خيرة من وصف الحياة الصليبية للممالك الإفرنجية؛ إذ نقل وصفًا دقيقًا لنمط الحياة وطبيعة التفكير والعادات والأطعمة والأخلاق والطب والفروسية، مما يشكل لنا أحد جذور الاستغراب، وسنكتفي منه بهذين النصين:

"سبحان الخالق الباري، إذا خَبرَ الإنسانُ أمورَ الفرنج سبّح الله تعالى وقدّسه، ورأى بهائم، فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل"[2]

"فكل مَن هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقًا من الذين تبلَّدوا، وعاشروا المسلمين"[3]. والنص يُبين عن تأثر الأوربيين بالشرق وتقاليده وعلومه وآدابه، مما كان قنطرة مهمة لنقل العلوم إلى أوروبا.

وهذ النص يمثل أحد أركان المركزية العربية الممثلة للتفوق الحضاري، فعلى الرغم من هزائم المسلمين في بدايات الحروب الصليبية إلا أن ابن منقذ يشيد بالشجاعة الصليبية وحسن التدبير في إدارة الحروب، ولكنه يتخلى عن اقتناعه بتفوقهم على باقي الأجناس، فلا تتهذب أخلاق الإفرنجي إلا بفعل التثاقف مع المسلمين: "فمن الإفرنج قوم قد تبلدوا وعاشروا المسلمين، فهم أصلح من القريبي العهد ببلادهم، ولكنهم شاذ لا يقاس عليه"[4].

(جـ) **ابن جبير (٦١٤هـ):** عاصر الحروب الصليبية، ونقل وصفًا دقيقًا للحياة المسيحية وللعلاقات الإسلامية الصليبية، وأبان عن دراية عالية من التثاقف الذي كان بين الطرفين، فمن النصوص النادرة عن انفصال التجاري عن السياسي قوله: "ومن أعجب ما يحدث أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين: مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان منهم ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض... واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع... والاتفاق بينهم على الاعتدال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب"[5].

ويزور ابن جبير صقلية بعد استرداد النورمانديين لها من المسلمين[6]، فيقول: "وهذه المدينة

(١) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، (دمشق، دار الفكر، ١٩٨٦)، ط٥، ص: ٤٠.

(٢) أسامة بن منقذ الشيزري، الاعتبار، تحقيق عبد الكريم الأشتر، (بيروت، المكتب الإسلامي، ٢٠٠٣)، ط٢، ص: ٢١٩.

(٣) الشيزري، الاعتبار، ص: ٢٢٢.

(٤) الشيزري، الاعتبار، ص: ٢٣١.

(٥) محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير، (الجزائر، موفم للنشر، ١٩٨٨)، ص: ٢٦٠.

(٦) افتتح المسلمون صقلية منذ عهد الفقيه أسد بن الفرات سنة (٨٢٧م) ودام حكمهم قرابة الثلاثة قرون إلى أن أخرجهم النورمانديون سنة (١٠٩١م) وكانت لهم إمارات ومدارس، وخلفوا بها آثارهم العمرانية والحضارية. انظر: شكيب أرسلان، غزوات العرب وفرنسا ولإيطاليا، (بيروت، منشورات مكتبة الحياة، ١٩٧٩)، ط١، ص: ١٩٠.

موسم تجار الكفار ومقصد جواري البحار كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار مظلمة الآفاق بالكفر لا يقر فيها لمسلم قرار، مشحونة بعبدة الصليب، مملؤة نتنًا ورجسًا.."[١] ولكنه يصور الأيام الأخيرة لوجود الإسلام فيها بكثرة المساجد والمدارس، ويذكر بأن الهيكل الإداري للدولة كان من المسلمين، بل يشير إلى حركة أسلمة داخل الحريم الملكي: "ومن أعجب ما حدثنا به أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصر حاكمهم فتعود مسلمة، وأما فتيانه وهم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون"[٢]. ويتكلم ابن جبير عن بعض حالات التطابق الاجتماعي في الأزياء "وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين، فصيحات الألسن، ملتحفات منتقبات...."[٣].

وعلى الجملة فالرحلة مُبينة عن أشياء كثيرة في التثاقف بين الشرق والغرب، وعن القناطر الإسلامية التي انبثقت منها النهضة الأوروبية التي بدأت في إيطاليا وفي مدنها الجمهورية، ويكفي القول بأن أعمدة البعث الأوروبي الحديث تثقفوا بالعلوم العربية وحولوا اللاهوت الكنسي إلى آخر إسلامي، كما قال أحد صناع النهضة "بيكو ديلا ميراندوا (١٤٨٦م) في كتابه "في الكرامة الإنسانية": "لقد قرأت في كتب العرب أن ليس ثمة في الكون شيء أكثر روعة من الإنسان"[٤]، إنه التراث الإسلامي المنسي الذي نهلت منه أوروبا في صناعة النهضة الحديثة، تراث انشدت إليه وأخذت منه، كما قال "بيير أبيلار": "الله يعلم كم مرة فكرت تحت ضغط يأس عميق في الرحيل عن الأراضي المسيحية والعبور نحو (المسلمين) للعيش هناك في سلام، دافعًا الجزية لأعيش مسيحيًّا بين أعداء المسيح"[٥]

هذه القناطر والجسور التجارية والرحلات والتبادل السفاري هي معين لا ينضب لعلم الاستغراب الذي ينطلق أساسًا من الحفر في الجذور الدفينة والتراث المنسي للحضارة الإسلامية المغدورة.

(د) **الطرطوشي (ق٤هـ)**: الذي اخترق أوروبا الوسطى والغربية وسجل ملاحظاته عن بلاد جليقية (الباسك) وفرنسا والبروتان فقال: "...وأهله أهل غدر ودناءة أخلاق، لا يتنظفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد، ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تتقطع عليهم، ويزعمون أن الوسخ الذي يعلوها من عرقهم تنعم به أجسامهم وتصح أبدانهم، وثيابهم أضيق الثياب، ولهم بأس شديد في الحرب ويرون الموت دونه، وأما البرتونيين (شمال فرنسا)، فلهم لغة تمجّها الأسماع ومناظر قبيحة وأخلاق سيئة، ولهم لصوص يقطعون على الإفرنج ويسرقونهم، والإفرنج يصلبونهم إذا ظفروا منهم بأحد، ومن البرتونيين والجليقيين والبشاكسة كان حشد "طيطش" حين خرج يريد بيت المقدس"[٦]

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص: ٢٩٧.
(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص: ٣٠٠.
(٣) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص: ٣٠٨.
(٤) محمد عابد الجابري، في نقد الحاجة إلى الإصلاح، بيروت، دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥)، ط١، ص: ٦٤.
(٥) محمد عابد الجابري، في نقد الحاجة إلى الإصلاح، ص: ٦٧.
(٦) أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢)، ط١، ج: ٢، ص: ٩١٣.

والنماذج في الرحلات كثيرة، وخاصة في العصر الحديث في السفارات التجارية والبحرية والتي كانت تنشأ لافتكاك الأسرى المسلمين، مثل "رحلة الوزير لافتكاك الأسير" للغساني، أو "نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد" لأحمد الغزال وغيرها[1].

المبحث الرابع: الغرب في تصورات المتكلمين والموسوعيين.

أمدنا الموسوعيون والمتكلمون والفلاسفة بتصوراتهم النظرية الكثيرة عن عالم الروم وأوروبا، وتلك التصورات المختلفة مبثوثة في كتب العقيدة والفلسفة والفلك والطب، ونماذج ذلك كثيرة، فمنها:

١-المتكلمون: من المعتزلة والأشاعرة، ومن نماذجهم:

(أ) **الجاحظ (٢٥٥ هـ)**: المتكلم المعتزلي والأديب المبدع في وصف عادات الشعوب والأقليات في الديار الإسلامية، وقد نقل خلاصة الرأي العلمي في التقويم الحضاري لساكنة المعمورة؛ إذ يرى أن الأمم المعتبرة أربع: العرب والفرس والهند والروم، والباقون همج أو أشباه همج[2]. وهذه الملاحظة كافية للقول ببداية تاريخية لتشكل مفهوم الغرب في الذاكرة الإسلامية باعتبارها كتلة منافسة للجماعة العربية.

كما أفادنا الجاحظ بمسألة تطور العلوم وأنه كان يونانيًّا خالصًا، ثم قضت عليه النصرانية لتحريمها المنطق والنظر وتقديمها التقليد، فيقول: "ولو علمت العوامُ أنَّ النصارى والروم ليست لهم حكمة ولا بيان، ولا بعد روية، إلا حكمة الكف من الخرط والنجر والتصوير وحياكة البزيون لأخرجتهم من حدود الأدباء، ولمحتهم من ديوان الفلاسفة والحكماء، لأن كتاب المنطق والكون والفساد، وكتاب العلوي، وغير ذلك، لأرسطاطاليس، وليس برومي ولا نصراني. وكتاب المجسطي لبطليموس، وليس برومي ولا نصراني. وكتاب إقليدس وليس برومي ولا نصراني، وكتاب الطب لجالينوس، ولم يكن روميًّا ولا نصرانيًّا، وهؤلاء ناس من أمة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم، وهم اليونانيون، ودينهم غير دينهم، وأدبهم غير أدبهم. أولئك علماء، وهؤلاء صناع أخذوا كتبهم لقرب الجوار، وتداني الدار، فمنها ما أضافوه إلى أنفسهم، ومنها ما حولوه إلى ملتهم. إلا ما كان من مشهور كتبهم، ومعروف حكمهم، فإنهم حين لم يقدروا على تغيير أسمائها زعموا أن اليونانيين قبيل من قبائل الروم، ففخروا بأديانهم على اليهود"[3]. والنص كافٍ بنفسه في نفي تصور أية إضافة رومانية للحضارة اليونانية.

(ب) الباقلاني أبو بكر (٤٠٣ هـ): المتكلم الأشعري الذي أفادنا بمعلومات عن الفكر المسيحي أثناء سفاراته للقسطنطينية. كما نقل لنا صور الحجاج النصراني في قضايا ألوهية المسيح وجوهره

(١) محمد ماكامان، الرحلات المغربية في القرنين ١١ و١٢، (الرباط، جامعة محمد الخامس،٢٠١٤)، ط١، ص: ٤١٩.
(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق درويش جويدي، (صيدا، المكتبة العصرية، ٢٠٠١)، ج: ١، ص: ٩١.
(٣) الجاحظ: رسالة الرد على النصارى، (ضمن رسائل الجاحظ)، ج: ١، ص: ٢٦١.

وأقنوميته[١]، وعن مكانة الكنيسة في الحياة الاجتماعية والثقافية في بيزنطة، وعن مركزية الدين في تلك العاصمة التي ضرب المثل بها في الخواء الفكري فيما عرف بالجدل البيزنطي، وصراع الإيقونيين واللاإيقونيين، و الأرثوذوكس والكاثوليك، مما جعلها لقمة سائغة أمام الفرنجة اللاتين في الحملة الصليبية الأولى[٢].

(جـ) **القاضي عبد الجبار(٤١٥هـ)**: أبرز متكلمي المعتزلة، وفائدته في موضوعنا هو أنه في سبيل الاحتجاج على النصارى في كتابه الفذ "تثبيت دلائل النبوة" ساق لنا عديدًا من الملاحظات الثقافية والاجتماعية لتكوُّن الغرب المسيحي وانبثاقه من الجذور الرومانية، في المزاوجة التي أنشأها بولس بين العقيدة النصرانية والتقاليد الرومانية حتى صارت قولته مرجعًا للمهتمين بمقارنة الأديان وهي:" فإذا تبينتَ الأمر وجدت النصارى تروَّموا ورجعوا إلى ديانات الروم، ولم تجد الروم تنصَّروا"[٣].

وتأكيدًا لمقولته يشير القاضي إلى جملة دلائل اجتماعية مثل: جعْل عيد الميلاد المجيد في آخر كانون الأول استحياء لعيد الزمان الروماني، وشيوع الزنا، وكراهية الروميات للتعدد والطلاق، وإباحة الخصاء ولحم الخنزير، ومنع الختان، وابتداع الاعتراف للقَسِّ، ومما قال:" ونساء الروم تبغض ديانات الأنبياء من بني إسرائيل لما فيها من إباحة الطلاق، وأن للرجل أن يتزوج ما أطاق المؤنة،.. والروم تكره الختان، والروم تأكل الخنزير...فأباحه بولس لهم"[٤]، بل إن هذه المزواجة يسحبها القاضي حتى على جوهر العقيدة المسيحية عندما يعتبر التثليث إرثًا رومانيًّا، ثم فرُضت العقائد الجديدة بحد السيف كما يقول:" وليس سيفٌ حُمل بباطل في جميع الأزمان مثل سيف النصرانية"[٥].

(د) **ابن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ)**: أهم قناطر الاستغراب في الموضوع الديني والمذهبي في جداله وحجاجه مع المذاهب المسيحية واليهودية في إسبانيا المسلمة، وموسوعته الفصل مليئة بالتصورات الدينية ونمطية التفكير النصراني في القرون الوسطى[٦]، كما أن رسائله في الردود على الربانية اليهودية شهيرة في كتابه " الرد على ابن النغريلة". وسيكون اليهود الأندلسيون القنطرة المهمة في ترجمة الكتب العربية في دير كلوني شمالي إسبانيا، الدير الذي هو الحلقة الأولى في حركة الاستشراق الأوروبي[٧]. وقد اعتبر ابن حزم الرائد لعلم مقارنة الأديان قبل سبينوزا في نقد النص الديني بقرون.

(١) محمد بن الطيب الباقلاني: كتاب التمهيد، ص: ٩٣.
(٢) زيتون عادل: العلاقات الكنسية والسياسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، ص: ١٧٣.
(٣) عبد الجبار بن أحمد القاضي، تثبيت دلائل النبوة، (القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د-ت)، ط١، ج: ١، ص: ١٦٦.
(٤) القاضي عبد الجبار، تثبيت دلائل النبوة، ج: ١، ص: ١٦٥.
(٥) القاضي عبد الجبار، تثبيت دلائل النبوة، ج: ١، ص: ١٨٥.
(٦) انظر علي بن أحمد بن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم وعبد الرحمان عميرة، (بيروت، دار الجيل، ١٩٩٦)، ط٢. ج: ٢، ص: ٢٣٢.
(٧) بلغيث، الحياة الفكرية في الأندلس في عصر المرابطين، ج: ٢، ص: ٨٣٤.

٢-الموسوعيون: ولهم نماذج كثيرة من المؤرخين والفلاسفة والأدباء ومنهم:

(أ) **المسعودي (٣٤٦هـ)**: الموسوعي الذي خلّف كتبًا عديدةً في التاريخ والتقويم للحضارات، مثل مروج الذهب، وأخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة".

قسّم المسعودي الأمم على حسب الإنتاج الحضاري، فاعتبر الروم من الأمم المسهمة في العطاء مع العرب والفرس والروم والهند، وأما غيرهم فهم مراتب دونهم.

ووصف تقسيم اليونانيين للعالم بأنه قسمة ثلاثية قارية وليست جغرافية مناخية كما يقول العرب، فالأرض عندهم ثلاثة أجزاء هي أورفا (أوروبا)، لوبية (إفريقيا)، وآسية[١].

والأمر نفسه نقله لنا ياقوت في معجم البلدان نقلاً عن البيروني الذي قال: كان اليونانيون يقسمون المعمور من الأرض ثلاثة أقسام: لوبية، أورفي، وتقابلهما آسيا ورقعتها أضعاف الأوليين بكثير.[٢]

قال المسعودي عن الروم: الأمة الثالثة اليونانيون والروم والصقالبة والإفرنجة ومن اتصل بهم من الأمم في وهو الشمال، كانت لغتهم واحدة ويملكهم ملك واحد[٣]. وعرض لديانات الروم قبل المسيحية وسماها الصابئة، وكذا أخبار الملوك المتنصرين والفرق والمذاهب المسيحية المتناحرة.

وعطفًا على ما ذكر فإننا نرى تمييزه المعرفي بين اليونان والروم وغيرهم مما يومئ إلى اختلاف العطاء والسبق الحضاري اليوناني على غيره، ولكنه يشير إلى عملية الاحتواء الحضاري للروم على اليونان فيقول: "وأن مملكتي اليونانيين والروم تتلو فارس في العظم والعز، ولما خصوا به من أنواع الحكم والفلسفة والمهن العجيبة والصنائع البديعة، ولأن مملكة الروم إلى وقتنا هذا ثابتة الرسوم متسقة التدبير، وإن كان اليونانيون قد دخلوا في جملة الروم منذ احتووا على ملكهم.."[٤].

ولكن المسعودي وتبعًا لنظريات المناخ والكيوف الطبيعية ينزع الصفة الحضارية والصورة التاريخية عن أوروبا الشمالية فيقول:" وأما أهل الربع الشمالي، وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في الشمال كالصقالبة والإفرنجة ومن جاورهم من الأمم، فعظمت أجسامهم وجفت طبائعهم وغلظت لحومهم وازرقت أعينهم، ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائمية"[٥]

(١) علي بن الحسن المسعودي، التنبيه والإشراف، (بيروت، مكتبة الهلال، ١٩٩٣)، ط١، ص: ٤٤.
(٢) الحموي، معجم البلدان (مادة آسيا)، ج: ١، ص: ٥٤.
(٣) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص: ٢٢.
(٤) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص: ٢٣. وانظر مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ١، ص: ٣٦ وص: ٢١٩.
(٥) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص: ٣٨.

(ب) **البيروني أبو الريحان (٤٤٠هـ)**: الفلكي مؤرخ العلوم الذي خلَّد آثار الهند في "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"، وقد فتح قناطر في علم الاستغراب في موسوعته الشهيرة: الآثار الباقية من القرون الخالية" حيث عرض لتراث اليونان والروم، والكلام عن تأريخهم وملوكهم ودياناتهم ومذاهبهم الفلسفية وعاداتهم وعلومهم، وأمدنا بجداول مهمة في التطورات السياسية والإدارية[١].

(جـ) **صاعد الأندلسي**: (ت ٤٦٢): تلميذ ابن حزم النبيه الذي يرى بأن ساكنة الأرض النافعة التي قدمت للحضارة سبع أمم، هي: الهند، والفرس، والكلدانيون، واليونان، والروم، والنبط، والعرب، والباقي همج لا نصيب لهم في الحضارة.

ويذكر أمتين: (اليونان والروم) وهما أساس العالم الغربي المعاصر؛ إذ يقول:" والأمة الثالثة اليونانيون والروم والإفرنجة، والجلالقة وبرجان والصقالبة والروس والبرغز واللان وغيرهم من الأمم التي حول بحر نيطش وبحيرة مايطس وغيرها من المواضع التي في الربع الشمالي من معمور الأرض، كانت مملكتهم واحدة ولغتهم واحدة"[٢].

ولكنه لا يضع الغربيين في درجة واحدة من التقدم، فقد قسَّم الأمم الغربية على حسب اقترابها وابتعادها من الحضارة، ووضع الغرب التاريخي (الرومان واليونان) بين "الشعوب النابهة"، وقد أطنب في ذكر فلاسفتهم وعلمائهم وإنتاجهم. ولذلك خص اليونانيين مبدعي الفلسفة بتقدير كبير ووصف جميل دون الباقين[٣]. كما أنه أعطانا الحدود الجغرافية لنواة العالم الغربي المعاصر:" الروم أمة ضخمة المملكة، فخمة الملوك، وكانت بلادهم مجاورة لبلاد اليونانيين، ولغتهم مخالفة للغتهم، فلغة اليونانيين الإغريقية، ولغة الروم اللطينية، وكان حد بلاد الروم من جهة الجنوب البحر الرومي، وحدها من جهة الشمال بعض ممالك الأمم الشمالية من الروس والبرغر.. وحدها من جهة المغرب من أقصى الأندلس البحر المحيط المعروف بأقيانس. وهذه المملكة قطع تتميز، فأولها من جهة المشرق مما يتاخم بلاد اليونانيين ألماني، وأوسطها بلد إفرنسة، ثم آخرها بلاد الأندلس"[٤]. وهذا الإبداع من صاعد الأندلسي لا نظير له مشرقًا إلا ما جاء في نظريات مسكويه الإنسانية.

أما الغرب الشمالي (الجرمان)، والشرقي (البلقان) أي الصقالبة فقد نسبهم صاعد إلى "الأمم الخاملة" وهي أمم "خصها الله بالعصيان والجهل وعمَّها بالعدوان والظلم".

في حين أنه انتهى إلى وصف الأجزاء الشمالية القاصية من أوروبا أو ما يسمى بالإقليم السابع

(١) محمد بن أحمد البيروني، الآثار الباقية من القرون الخالية، (بيروت، دار صادر، د-ت)، ص: ٩٣.
(٢) صاعد بن أحمد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق حياة العيد بوعلوان، (بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٥)، ص: ٣٨.
(٣) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص: ٧٠-٨٤.
(٤) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص: ٩٦.

بالجهل والتوحش مُرجعًا ذلك للمناخ، فيقول:" لأن من كان منهم موغلاً في بلاد الشمال من بين آخر الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمور في الشمال فإفراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم وبرد هوائهم وكثف جوهم، فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاقهم فجة، فعظمت أبدانهم وابيضَّت ألوانهم وانسدلت شعورهم، فعُدموا بهذا دقَّة الأفهام وثقوب الخواطر، وغلب عليهم الجهل والبلادة، وفشا فيهم العِيُّ والغباوة"[1].

وهذه الأحكام القاسية على أمم الشمال أرجعها جغرافيو المسلمين لنظريات تأثير المناخ. ولكنها غير كافية فيما ذهبوا إليه، إذ أن هذه الأمم دخلت المجتمع التاريخي وأسهمت في الحضارة المعاصرة، وأما الأقاليم المعتدلة فقد تردت وولت الأدبار عن الريادة التي تبوأتها ردحًا من الزمن. وهي تصورات تنبئ عن مركزية إسلامية في العصور الوسطى بالتحقيب الغربي.

(د) **ابن خلدون (٨٠٨هـ)**: خاتمة الموسوعيين الذي أضاف تأثير العمران والمناخ في أخلاق الشعوب، فأخبر عن الفرنجة وأوروبا والبحر الرومي وغلبة الماء على هذه الأقاليم، وتكلم عن روما والبندقية ونابولي وفرنسا ونورمانديا وبلاد الألمان وإنجلترا[2].

لم يسلِّم ابن خلدون بالنظريات التوراتية القائلة بالتقسيم الثلاثي للبشر (حام، سام، يافث)[3] وأرجع سبب تغير الألوان للمناخ والجغرافيا، فقال:" الإقليم السادس والسابع شمل سكانها أيضًا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال؛ إذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرأى العين أو ما قرب منها لا ترتفع إلى المسامتة ولا ما قرب منها، فيضعف الحر فيها ويشتدُّ البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها وتنتهي إلى الزعورة، ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور"[4].

ويفيدنا ابن خلدون في مقدمته وتاريخه عن أثر التطورات السياسية في العالم الغربي بعد طاعون القرن الثالث عشر، ويتكلم عن انقلاب الأوضاع لصالح الغربيين بعد حروب الاسترداد الإسبانية، وهو الشاهد على بدايات أفول الحضارة الإسلامية.

(هـ) حاجي خليفة (١٦٥٧م): من الموسوعيين الأتراك المتأخرين وصاحب الموسوعة الموسومة: "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون"، وقد أمكنته وظيفة محاسب في الجيش العثماني أن يرافقه في أسفاره، وأن يقترب من ديوان البريد الحافل بأخبار أوروبا المتصارعة مع الدولة العثمانية، ولذلك ترك لنا كتابين في التعريف بأوروبا الحديثة هما:

-تاريخ إفرنجي(حول تاريخ أوروبا القرن ١٦م)، و" تقويم التواريخ" و"تحفة الكبار في أسفار البحار".

(١) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص: ٤١-٤٥.

(٢) عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، تحقيق درويش الجويدي، (صيدا، المكتبة العصرية، ١٩٩٧)، ط٢، ص: ٣٤٥.

(٣) انظر غريغوار مرشو، مقدمات الاستتباع، (فرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦)، ط١، ص: ٩٠.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج: ١، ص: ٣٩٦.

-إرشاد الحيارى إلى تاريخ اليونان والروم والنصارى: تناول فيه جوانب من تاريخ الأمم المسيحية وعاداتها وأنظمتها وأشكال الحكم فيها، وعلاقاتها بالإمبراطورية العثمانية[١].

وجهود علماء الأتراك المتأخرين كثيرة في التأسيس لعلم الاستغراب من حيث كونهم شاهدين مباشرين للنهضة الأوروبية الحديثة، ولكون بعضهم في البعثات الدبلوماسية للدولة العثمانية في بلاطات الدول الغربية مثل: بروسيا وفرنسا والفاتيكان والبندقية وجنوة.

وتتميماً لما سبق فإن التأسيس لعلم الاستغراب لا بد أن يتساوق مع التنقيب في كتابات الغربيين الذين تناولوا جذوره في كشفهم عن العلاقات الدبلوماسية والتجارية للعالم الإسلامي، وعن قناطر النهضة الأوروبية (الأندلس، وصقلية، والحروب الصليبية)، مثل كتابات آدم ميتز، وموريس لومبار[٢]، وزيغريد هونكه[٣]. والكتابات العديدة عن أثر ابن رشد الفيلسوف (٥٩٥ هـ) [٤]في قلب الطاولة على المسيحية الكلاسيكية فيما عُرف بتيار الرشدية الحديثة الذي مهَّد لعصر الأنوار وميلاد أوروبا الجديدة.

الخاتمة:

يمكن الخلوص في خاتمة هذا التطواف إلى أن العلماء والدبلوماسيين والرحالة والجغرافيين حاولوا رسم صورة مقاربة عن المخالف لهم في الدين والنائي عنهم في الدار، في حين كانت معرفتهم بالقريب المشاكس أكثر وضوحًا نتيجة للاحتياجات الأمنية، وأن الدافعية للهيمنة الفكرية كانت نتيجة لازمة للهيمنة السياسية للإسلام في قرون مجده الأول، فكما رسم اليونان العالم بالمجسطي وغيره، فالأمر نفسه عمد إليه المسلمون مع الإدريسي وغيره، مما يقود إلى القول بأن لعلم الاستغراب الذي يُراد تأسيسه الآن جذورًا قوية في القرآن الذي كان خُمس حديثه عن الأولين، وكذا في السنة النبوية التي لم نعدم فيها نصوصًا واضحة حول التثاقف مع الخبرة الأجنبية أخذًا وردًّا، نقدًا ونقضًا، ثم جاءت الخبرة الإسلامية عالية الأفق في الكشف عن الآخر ومعرفة أقاليمه وتاريخه ودينه بغية الدعوة إلى الإسلام، ثم الوفاء بالحاجات الاستخباراتية الأمنية لدرْءِ شرٍّ متوقع في عالم لا يعرف حدودًا إلا حدود القوة. وأخيرًا لم يغب الهدف العلمي ولا التجاري في أعمال الرحالة والجغرافيين والمهتمين بالأجناس والآداب والأديان.

إن العقل المسلم قدم في السالف ما قُدر له من جهود محمودة، وهو مدعو اليوم إلى القيام بالرد المناسب على أعمال الاستشراق بتكثيف الجهد الموازي لمعرفة الغرب معرفة دقيقة لرد غوائله، وفتح نوافذ الدعوة فيه، والإفادة من خبرته في تطويع الحياة، ووصل الجسور مع الخيرين فيه لحوار حضاري جاد يحترم الإنسان ويحسن ارتفاق الكون من أجل صلاح الأرض ومن عليها من دون تطلّع إلى العلو والاستكبار، أو السعي للبغي ومحق الآخرين.

(١)) بن حمادة، السفر في العالم العربي الإسلامي، التواصل والحداثة، (الرباط، جامعة محمد الخامس، ٢٠٠٣)، ط١، ص: ٧٤.
(٢) موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ترجمة إسماعيل العربي، (الجزائر، الشركة الوطنية، ١٩٧٩)، ص: ٣٦٤.
(٣) زيغريد هونكه: شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة فؤاد حسنين علي، (الجزائر، مكتبة رحاب، ١٩٨٦)، ص: ٣٠٧.
(٤) أرنست رينان: ابن رشد والرشدية، ترجمة عادل زعيتر، (القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية،٢٠٠٨)، ط١، ص: ١٨٥.

التوصيات:

- تكثيف البحث في المدونات الإسلامية في علوم التاريخ والجغرافيا والرحلات والأدب للكشف عن الإسهام الإسلامي في رسم صور العالم القديم.
- الإفادة من كتب النوازل الفقهية وكتب السير (العلاقات الدولية الإسلامية) في تقييم المعرفة الإسلامية بالآخر، وآثار تلك المعرفة في رسم المدونة القانونية الإسلامية.
- ضرورة استناد علم الاستغراب المعاصر للتجارب السابقة المبثوثة في كتب التراث، والتي سعى البحث للكشف عن بعضها.
- الاهتمام بالمنجز الإسلامي في معرفة الآخر، وإدراجه ضمن مقومات الريادة الإسلامية السابقة.
- فتح تخصصات علمية في معرفة العوالم الأخرى الشرق أقصوية والإفريقية.
- توجيه الدراسات الشرعية الفقهية والعقدية للاستفادة من هذه النوافذ في بناء معرفة رصينة تسهم في إعطاء حلول إسلامية للمشاكل العالمية، وللأقليات الإسلامية في الغرب.
- تجسير هذه التخصصات مع الاقتصاد والسياسة والسياحة بما يعود بالنماء على موارد الدول العربية.

المصادر والمراجع

أولاً- المصادر والمراجع العربية:

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير علي بن محمد، الكامل في التاريخ، (بيروت، دار الكتاب العربي، د-ت)، ط٦.
- ابن الأثير مجد الدين بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق محمود الطناحي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٩)، ط١.
- أرسلان شكيب، غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، (بيروت، مكتبة الحياة، ١٩٧٩)، ط١.
- الأزهري محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١)، ط١.
- الإصطخري إبراهيم بن محمد، مسالك الممالك، (بيروت، دار صادر، د-ت)، ط١.
- الباقلاني محمد بن الطيب، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، (بيروت، الكتب الثقافية، ١٩٩٣)، ط١.
- بالنثيا آنخل: الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، (القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٨)، ط٢.
- البكري أبو عبيد، المسالك والممالك، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢)، ط١.
- بلغيث محمد الأمين، الحياة الفكرية الأندلس في عصر المرابطين، (الجزائر، القافلة، ٢٠١٤)، ط١.
- بن نبي مالك: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، (دمشق، دار الفكر، ١٩٨٦)، ط٥.
- البيروني أبو الريحان محمد بن أحمد: الآثار الباقية من القرون الخالية، (بيروت، دار صادر، د-ت).
- الجابري محمد عابد: في نقد الحاجة إلى الإصلاح، (بيروت، دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥)، ط١.
- الجاحظ عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق درويش جويدي، (صيدا، المكتبة العصرية، ٢٠٠١)،
- الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق علي أبو ملحم، (بيروت، مكتبة الهلال، ١٩٩٣)، ط٣.
- ابن جبير محمد بن أحمد: رحلة ابن جبير، (الجزائر، موفم للنشر، ١٩٨٨).
- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (الرياض، مكتبة دار السلام، ٢٠٠٠)، ط٣.
- ابن حزم علي بن أحمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم وعبد الرحمان عميرة، (بيروت، دار الجيل، ١٩٩٦)، ط٢.
- بن حمادة محمد: السفر في العالم العربي الإسلامي، (الرباط، جامعة محمد الخامس، ٢٠٠٣) ط١.
- الحموي ياقوت: معجم البلدان، (بيروت، دار صادر، ٢٠١٠)، ط٨.
- الحميدي محمد بن فتوح، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨).
- ابن خرداذبة أبو القاسم: المسالك والممالك، (ليدن، مطبعة بريل، ١٨٨٩)، ط١.
- ابن خلدون، المقدمة، تحقيق درويش الجويدي، (صيدا، المكتبة العصرية، ١٩٩٧)، ط٢.
- ديورانت ول: قصة الحضارة، ترجمة المنظمة العربية للثقافة والعلوم، (بيروت، دار الجيل، ١٩٩٨)، ط١.
- رينان أرنست، ابن رشد والرشدية، ترجمة عادل زعيتر، (القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٨)، ط١.
- الزحيلي وهبة، أثار الحرب في الفقه الإسلامي، (دمشق، دار الفكر، ١٩٩٢)، ط٤.
- الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، (بيروت، دار الفكر، ١٩٧٨).
- أبو زهرة محمد، محاضرات في النصرانية، (الجزائر، مكتبة الشهاب، ١٩٨٩).

- زيتون عادل، العلاقات الكنسية والسياسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، (دار دمشق، ١٩٨٠)، ط١.
- ابن سعيد علي بن موسى، الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، (الجزائر، المطبوعات الجامعية، ١٩٨٢)، ط٢.
- السلامي شافية حداد، نظرة العرب إلى الشعوب المغلوبة من الفتح إلى القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، (بيروت، دار الانتشار العربي، ٢٠٠٩)، ط١.
- السهيلي عبد الرحمن، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق عمر عبد السلام السلاوي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠)، ط١.
- الشابشتي علي بن الحسن، كتاب الديارات، تحقيق عواد كوركيس، (بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨٦)، ط٢.
- الشيزري أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق عبد الكريم الأشتر، (بيروت، المكتب الإسلامي، ٢٠٠٣)، ط٢.
- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق حياة العيد بوعلوان، (بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٥).
- عبد الجبار القاضي، تثبيت دلائل النبوة، تحقيق عبد الرحيم السائح، (القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د-ت)، ط١.
- عبد الله إبراهيم، المركزية الإسلامية صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، (المغرب، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠١)، ط١.
- أبو العرب القيرواني، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق علي الشابي، (تونس، الدار التونسية، ١٩٨٥).
- العريني السيد الباز، تاريخ الدولة البيزنطية، (بيروت، دار النهضة العربية، د.ت) ط١.
- العقيقي نجيب، المستشرقون، (القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠)، ط٤.
- علي جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (العراق، جامعة بغداد، ١٩٩٣)، ط٢.
- الغزالي محمد، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، (مصر، دار نهضة مصر، ٢٠٠٣)، ط٣.
- فريد محمد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، (بيروت، دار النفائس، ١٩٩٨)، ط٨.
- -ابن فضلان، رحلة ابن فضلان، تحقيق حيدر غيبة، (بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ١٩٩٤).
- القرطبي محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠)، ط١.
- الكتاني عبد الحي، التراتيب الإدارية أو نظام الحكومة النبوية، (بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت).
- لومبار موريس، الإسلام في مجده الأول، ترجمة إسماعيل العربي، (الجزائر، الشركة الوطنية، ١٩٧٩).
- مارتن برنال، أثينا السوداء الجذور الأفروآسوية للحضارة الكلاسيكية، (مصر، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧)، ط١.
- ماكامان محمد، الرحلات المغربية في القرنيين ١١-١٢، (الرباط، جامعة محمد الخامس، ٢٠١٤).
- مرشو غريغوار، مقدمات الاستتباع الشرق موجود بغيره لا بذاته، (فرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦)، ط١.
- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد اللحام، (بيروت، دار الفكر، ٢٠٠٠)، ط١.
- المسعودي أبو الحسن، التنبيه والإشراف، (بيروت، مكتبة الهلال، ١٩٩٣)، ط١.
- المقدسي محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (ليدن، مطبعة بريل، ١٩٠٦)، ط٢.
- ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، (بيروت، دار صادر، ٢٠٠٨)، ط٦.
- مؤنس حسين، فجر الأندلس، (جدة، الدار السعودية، ١٩٨٥).
- النووي يحيى بن شرف، المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجّاج، (بيروت، دار ابن حزم، ٢٠٠٢)، ط١.
- الهاشمي السيد أحمد، جواهر الأدب، (بيروت، دار المعارف، د-ت).
- هونكه زغريد، شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة فؤاد حسنين علي، (الجزائر، مكتبة رحاب، ١٩٨٦).
- الونشريسي أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨١)، ط١.

ثانيا–المصادر والمراجع الأجنبية:

References :

- Abdul-Jabbar, Al-Qadi, *Tathbit Dalail Al-Nubuwwah*, Ed. Abdul-Rahim Al-Saih, (Cairo: Maktabat Al-Thaqafah Al-Diniyyah), 1st ed.
- Abdullah Ibrahim, *Al-Markaziyyah Al-Islamiyyah Surat Al-Akhar fi Al-Mikhyal Al-Islami Khilal Al-Qurun Al-Wusta*, (In Arabic), (Morocco: Al-Markaz Al-Thaqafi Al-Arabi, 2001), 1st ed.
- Abu al-Arab al-Qayrawani, *Tabaqat Ulama Ifriqiyyah wa Tunis*, (In Arabic), Ed. Ali Al-Shabi, (Tunis: Al-Dar Al-Tunusiyyah, 1985).
- Abu Zahra, Muhammad, *Muhadarat fi Al-Nasraniyyah,* (In Arabic), (Algeria: Maktabat Al-Shihab, 1989).
- Al-Aqiqi, Najib, *Al-Mustashriqun*, (In Arabic), (Cairo: Dar Al-Marif, 1980), 4th ed.
- Al-Azhari Muhammad Ibn Ahmad, *Tahthib Al-Lughah*, (In Arabic), Ed. Muhammed Awad Murib, (Beirut, Dar Ihys Al-Turath Al-Arabi, 2001), 1st ed.
- Al-Bakri Abu Ubayd, *Al-Masalik Al-Mamalik*, (In Arabic), (Beirut, Dar al-Gharb al-Islami, 1992), 1st ed.
- Al-Baqillani, Muhammed Ibn Tayyib, *Tamhid Al-Awail wa Talkhis Al-Dalail*, (In Arabic), Ed. Imad al-Din Ahmad Haydar, (Beirut, Al-Kutub Al-Thaqafiyyah, 1993), 1st ed.
- Al-Bayruni, Abu al-Rayhan Muhammad ibn Ahmad, *Al-Athar Al-Baqiyah min Al-Qurun Al-Khaliyah*, (In Arabic), (Beirut: Dar Sadir).
- Al-Ghazali, Muhammad, *Al-Tassub wa Al-Tasamuh Bayna Al-Masihiyyah wa Al-Islam*, (In Arabic), (Egypt: Dar Nahdat Misr, 2003), 3rd ed.
- Al-Hamawi, Yaqut, *Mujam Al-Buldan*, (In Arabic), (Beirut: Dar Sadir, 2010), 8th ed.
- Al-Hashimi, Sayyid Ahmad, *Jawahir Al-Adab,* (In Arabic), (Beirut: Dar Al-Marif).
- Al-Humaydi Muhammed Ibn Futuh, *Jathwat Al-Muqtabis fi Thikr Wulat Al-Andalus*, (In Arabic), (Cairo: Al-Hayah Al-Misriyyah Al-Amah lil Kitab, 2008).
- Ali Jawad, *Al-Mufassal fi Tarikh Al-Arab*, (In Arabic), (Iraq: University of Baghdad, 1993), 2nd ed.
- Al-Istkhri, Ibrahim Ibn Muhammad, *Maslak Al-Mamalik*, (In Arabic), (Beirut, Dar Sadir), 1st ed.
- Al-Jabri, Muhammed Abid, *Naqd Al-Hajah ila Al-Islah*, (In Arabic), (Beirut: Dirasat Al-Wihdah Al-Arabiyyah, 2005), 1st ed.
- Al-Jahiz, Amr ibn Bahr, *Al-Bayan wa Al-Tabyin*, (In Arabic), Ed. Darwish Jwaydi, (Sidon, Lebanon: Al-Maktabah Al-Asriyyah, 2001).
- Al-Jahiz, Amr Ibn Bahr, *Rasail Al-Jahiz*, (In Arabic), Ed. Ali Abu Malham, (Beirut: Maktabat Al-Hilal, 1993), 3rd ed.
- Al-Kettani, Abdul-Hayy, *Al-Taratib Al-Idariyyah Aw Nizam Al-Hukumah Al-Nabawiyyah*, (In Arabic), (Beirut: Dar Al-Kitab Al-Arabi).
- Al-Maqdisi, Muhammad Ibn Ahmad, *Ahsan Al-Taqasim fi Marifat Al-Aqalim*, (In Arabic), (Leiden: Brill Press, 1906), 2nd ed.
- Al-Masudi, Abu Al-Hasan, *Al-Tanbih wa Al-Ishraf*, (In Arabic), (Beirut: Maktabat Hilal, 1993), 1st ed.
- Al-Masudi, *Muruj Al-Thahab wa Madin Al-Jawahir*, (In Arabic), Ed. Muhammed Al-Lahham, (Beirut: Dar al-Fikr, 2000), 1st ed.
- Al-Nawawi, Yahya Ibn Sharaf, *Al-Minhaj bi Sharh Sahih Muslim Ibn Hajjaj*, (In Arabic), (Beirut: Dar Ibn Hazm, 2002), 1st ed.
- Al-Qurtubi, Muhammad Ibn Ahmad, *Al-Jami li Ahkam Al-Quran*, (In Arabic), (Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, 2000), 1st ed.
- Al-Salami, Shafia Haddad, *Nazrat Al-Arab ila Al-Shuub Al-Maglubah min Al-Fath ila Al-Qarn Al-Latini fi Al-Usur Al-Wusta*, (In Arabic), (Beirut: Dar Al-Intishar Al-Arabi, 2009), 1st ed.
- Al-Shabashti, Ali Ibn Al-Hasan, *Kitab Al-Diyarat*, Ed. Awwad Kurkis, (In Arabic), (Beirut: Dar Al-Raid al-Arabi, 1986), 2nd ed.
- Al-Shizri, Usama Ibn Munqith, *Al-Itibar*, (In Arabic), Ed. Abdul-Karim Al-Ashtar, (Beirut: Al-Maktab Al-Islami, 2003), 2nd ed.
- Al-Suhayli, Abdul-Rahman, *Al-Rawd Al-Unf fi Sharh Al-Sirah Al-Nabawiyyah li Ibn Hisham*, (In Arabic), Ed. Omar Abdul-Salam Al-Sallawi, (Beirut: Dar Ihya Al-Turath Al-Arabi, 2000), 1st ed.
- Al-Urayni, Al-Sayyid Baz, *Tarikh Al-Dawlah Al-Bizantiyyah*, (In Arabic), (Beirut: Dar Al-Nahdah Al-Arabiyyah) 1st ed.

- Al-Wansharisi, Ahmed Ibn Yahya, *Al-Miyar Al-Murib wa Al-Jami Al-Mughrib an Fatawa Ulama Ifriqiyyah wa Al-Andalus wa Al-Maghrib*, (In Arabic), Ed. Mihammed Haji, (Beirut: Dar al-Gharb Al-Islami, 1981), 1st ed.
- Al-Zamakhshari, *Asas Al-Balaghah*, (In Arabic), Ed. Abdul-Rahim Mahmud, (Beirut: Dar Al-Fikr, 1978).
- Al-Zuhayli, Wahbah, *Athar Al-Harb fi Al-Fiqh Al-Islami*, (In Arabic), (Damascus: Dar al-Fikr, 1992), 4th ed.
- Arslan Chakayb, *Ghazawat Al-Arab fi Faranca wa Swisra wa Jazair Al-Bahr Al-Mutawassit*, (In Arabic), (Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, 1979), 1st ed.
- Bilgith Muhammad Al-Amin, *Al-Hayat Al-Fikriyyih*, (In Arabic), (Algeria: Al-Qafilah, 2014), 1st ed.
- Durant, Will: *Qissat Al-Hadarah*, (In Arabic), Translated by: The Arab Organization for Culture and Science, (Beirut, Dar Al-Jil, 1998), 1st ed.
- Farid Muhammad Bek, *Tarikh Al-Dawlah Al-Aliyyah Al-Uthmaniyyah*, (In Arabic), (Beirut: Dar Al-Nafais, 1998), 8th ed.
- Hunke, Sigrid, *Shams Allah Tastu ala Al-Gharb*, (In Arabic), Translated byL Fuad Hasanayn Ali, (Algeria: Maktabat Rihab, 1986).
- Ibn Al-Athir Ali Ibn Muhammad, *Al-Kamil fi Al-Tarikh*, (In Arabic), (Beirut; Dar al-Kitab al-Arabi), 6th ed.
- Ibn al-Athir Majd al-Din Ibn Muhammad al-Jazari, *Al-Nihayah fi Gharib Al-Hadith wa Al-Athar*, (In Arabic), Ed. Mahmud al-Tanahi, (Beirut, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, 1979), 1st ed.
- Ibn Fadlan, *Rihlat Ibn Fadlan*, (In Arabic), Ed. Haydar Ghaybah, (Beirut: Al-Sharikah Al-Alamiyyah lil Kitab, 1994).
- Ibn Hajar Al-Asqalani, *Fath Al-Bari bi Sharh Saheeh Al-Bukhari*, (In Arabic), (Riyadh: Maktabat Dar Al-Salam, 2000), 3rd ed.
- Ibn Hamadah Muhammad, *Al-Safar fi Al-Alam Al-Islami*, (In Arabic), (Rabat: Jamiat Muhammed Al-Khamis, 2003), 1st ed.
- Ibn Hazm, Ali bin Ahmad, *Al-Fasl fi Al-Milal wa Al-Ahwa wa Al-Nihal*, (In Arabic), Ed. Muhammed Ibrahim and Abdul-Rahman Amirah, (Beirut: Dar Al-Jil, 1996), 2nd ed.
- Ibn Jubayr, Muhammed Ibn Ahmad, *Rihlat Ibn Jubair*, (In Arabic), (Algeria: Mofem li Al-Nashr, 1988).
- Ibn Khaldun, *Al-Muqaddimah*, (In Arabic), Ed. Darwish al-Juwaydi, (Sidon, Lebanon: Al-Maktabah Al-Asriyyah, 1997), 2nd ed.
- Ibn Khurdadiba, Abu al-Qasim, *Al-Masalik wa Al-Mamalik*, (In Arabic), (Leiden: Brill Press, 1889), 1st ed.
- Ibn Manzur, Muhammad Ibn Makram, *Lisan Al-Arab,* (In Arabic), (Beirut: Dar Sadir, 2008), 6th ed.
- Ibn Said, Ali Ibn Musa, *Al-Jughrafiyyah*, (In Arabic), Ed. Ismail Al-Arabi, (Algeria: Al-Matbuat Al-Jamiyyah, 1982), 2nd ed.
- Lumbar, Morris, *Al-Islam fi Makdihi Al-Awwal*, (In Arabic), Translated by Ismail Al-Arabi, (Algeria: Al-Sharikah Al-Wataniyyah, 1979).
- Makaman Muhammad, *Al-Rahalat Al-Maghribiyyah fi Al-Qarnayn 11-12*, (In Arabic), (Rabat: Mohammed V University, 2014).
- Malib Ibn Nabi*, Wijhat Al-Alam Al-Islami*, (In Arabic), Ed. Abdul Sabur Shahin, (Damascus, Dar al-Fikr, 1986), 5th ed.
- Marguerio Gregoire, *Muqaddimat Al-Istitba Al-Sharq Mawjudun bi-Ghayrihi la bi-Thatihi*, (In Arabic), (Virginia: World Institute of Islamic Thought, 1996), 1st.
- Martin Bernal, *Athina Al-Sawda wa Al-Juthur Al-Afro-Asyawiyyah lil Hadarah Al-Classiciyyah*, (In Arabic), (Egypt, Al-Majlis Al-Ala lil Thaqafah, 1997), 1st ed.
- Munis Husayn, *Fajr Al-Andalus*, (In Arabic), (Jeddah: Al-Dar Al-Saudiyyah, 1985).
- Renan, Ernest, *Ibn Rushd wa Al-Rushdiyyah*, (In Arabic), Translated by: Adil Zuaytar, (Cairo: Maktabat Al-Thaqafah Al-Diniyyah, 2008), 1st ed.
- Said Al-Andalusi, *Tabaqat A-Umam*, (In Arabic), Ed. Hayat Al-Eid Bualwan, (Beirut: Dar Al-Taliah, 1985).
- The Holy Quran.
- *Valencia Angel: Al-Fikr Al-Andalusi, Translated by Husayn Munis,* (In Arabic), (Cairo: Maktabat Al-Thaqafah Al-Diniyyah, 2008), 2nd ed.
- Zaytun Adil, *Al-Alaqat Al-Kanasiyyah wa Al-Siyasiyyah bayn Al-Sharq Al-Bizanti wa Al-Gharb Al-Latini fi Al-Usur Al-Wusta,* (In Arabic), (Dar Dimashq, 1980), 1st ed.